الفصل السابع

عصر الطولونيين والإخشيديين

إن حالة الاستقرار النسبي والازدهار اللذين عرفتهما مصر الطولونية، كانت من العوامل التي سمحت للبدو أن يزدادوا، بفضل حضور قادمين جدد إلى البلاد؛ وحيث أصبح الوافدون منهم في زيادة مستمرة، وظلت مصر في ذلك الوقت كما كانت في القرون السابقة ملجأ للعلويين الفارين من اضطهاد العباسيين؛ ولنذكر هنا أنه في عام ٢٣٥ هـ، كان العلويُون قد طردوا من مصر بأمر من الخليفة المتوكل إلى واليه في مصر، والذي نفاهم من الفسطاط وأرسلهم إلى العراق أو المدينة في عام ٢٣٦ هـ ، ولقد تمكن البعض منهم من أن يختبئ، أو يستتر على حد قول المقريزي: "واستتر من كان بمصر على رأي العلوية" وظلوا خفية من البلاد، وانضم إليهم غيرهم في وقت لاحق عندما اشتدت حركة العلويين في العالم الإسلامي، ولم يتوان ابن طولون في منحهم عنايته وإيوائهم، ولقد ظلت جموع العلويين في مصر على رأيهم وظلوا مخلصين لأفكارهم التي كانوا ينشرونها بطبيعة الحال في محيط البدو، ومن جهة أخري، فإن أحمد بن طولون كان يقمع ثوراتهم التي اشتعلت في الصعيد الأعلى، واضطر كذلك إلي مطاردتهم لمدة طويلة غرب الإسكندرية وفي إسنا، وحدث أيضا في عهد ابن طولون وفي عام ٢٥٥هـ- وبينما كان الهدوء يسود الصعيد الأعلى ومنطقة المعادن- أن نشبت الثورة في الصعيد وكان على رأسها أحد القرشيين ممن ينتسبون إلي العمريين، يدعى أبا عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد ابن الناسك العمري، وسار العمري "غضبا لله وللمسلمين"، في جموع ضخمة من البدو من ربيعة وجهينة وغيرهما، نحو النوبة لمحاربة البجة، الذين كانوا يقومون بشن غاراتهم على السكان المسلمين في المنطقة، واندفع البدو في حملتهم ضد البجة وأجبروهم على دفع الجزية، وأرسى

العمري نفوذه على مناطق المعادن حوالي عام (٢٥٥)هـ، فلما علم بذلك ابن طولون، أسرع بتجهيز جيش لمحاربة العمري وحلفائه من البدو، واستمر العمري في قتاله بكل شجاعة، ولكن الخلاف الذي دب بينه وبين القبائل التي كانت تقف بجانبه، وتخليها عنه، قد عرضه للقتل على يد اثنين من العرب، وأرسلت رأسه إلي ابن طولون.

ولقد لعبت ربيعة دوراً هاماً في هذه الحادثة، فبعد أن انفصلت عن العمري، تقربت ربيعة من البجة وتزاوجوا معهم وأمكنهم بذلك أن يسيطروا على المنطقة.

ويحكى المسعودي في حوادث تلك الفترة، أنه في عام (٣٣٢)هـ، وكانت مصر أيامها يحكمها الإخشيديون، كان الصعيد الأعلى يعج ببني ربيعة الذين تصاهروا مع الحدارية وهم من مسلمي البجة، وكانت بينهم روابط قوية، وقد نزلت قبائل أخرى من البدو، وخاصة بني سليم، في منطقة وادي العلاقي، واستمر بنو ربيعة ولزمن طويل سادة المنطقة، لدرجة أن رئيس ربيعة (بشر بن مروان)، كان يلقب"بصاحب المعادن"، وكان تحت تصرفه (٣٠٠٠) فارس من قبيلة ربيعة، و(٣٠٠٠٠) رجلاً من الحدارية، ويحتمل أن يكون بشر هذا هو نفس الشخص الذي تحدث عنه المقريزي، وسماه إسحاق بن بشر (من بني بشر)، وقتل إسحاق بن بشر وخلفه على رأس بني ربيعة ابن عمه ابن مسروق، الذي كان ينزل في بلبيس من الحوف، وابن مسروق هذا هو أبو المكارم الذي كان معاصراً للخليفة الفاطمي الحاكم وهو الذي سيلقبه بكنز الدولة، وكانت ربيعة في ذلك الوقت وحلفاؤها من البدو، في أوج قوتهم في هذه المنطقة، وشكلوا إمارة عربية بدوية في منطقة وادي العلاقي، وكان رئيس بني ربيعة هناك يعرف بحامي أسوان.